الملـــف

الدين والثقافة/1

❖ **إشكاليات العلاقة بين الدين والثقافة**
السيد محمد حسن الأمين

❖ **الإسلام آخر الديانات وأولها**
الدكتور سيد حسين نصر

❖ **خواطر في فلسفة الدين**
الدكتور بولس الخوري

❖ **مدخل الى فهم الظاهرة الدينية**
د.خنجر حمية

الملـــف

اشكاليات العلاقة بين الدين والثقافة

(مقدمة نظرية)

تأليف: السيد محمد حسن الأمين

«الدين والثقافة من منظور فلسفي - معرفي» وهو عنوان الملف الذي يقدمه هذا العدد من مجلّة المحجة، التي أصدرت قبل عددين: العدد صفر والعدد الأول.. يبدو - أي هذا العنوان، على انسجام مع الأفق المعرفي الذي اختارته المجلة لنفسها. وقد جاءت الأبحاث التي نشرتها لتؤكد جدّيتها في هذا الاختيار؛ حيث تجلّت النزعة المعرفية الفلسفية، بوصفها الطابع الأساسي لتلك الأبحاث، والمداخلات.. وجاء العنوان المقترح لملف هذا العدد (الثالث) ليضيف تأكيداً جديداً على النزعة التي تضطلع (المحجة) في التعبير عنها.. فللمحجّة، وللقائمين عليها كل الشكر، والتقدير للاضطلاع بهذه المهمة الطموحة، والمتجاوزة للكثير من مساحات اهتمام الفكر الديني في هذه المرحلة التي يكثر فيها صدور الكتب، والدوريات، ولا ينجو إلا القليل منها من آفة التسطيح، والسهولة وتكرار ما قيل.

وبالعودة إلى موضوع الملف (الدين والثقافة) فإنه من المواضيع التي تتعدد وجوه القول والبحث فيها.. وبالأساس فإن مصطلح الثقافة مصطلح إشكالي، لا يستقر على تعريف محدد (جامع مانع). كما أن مفهوم الدين (وليس الدين نفسه) مفهوم ملتبس، على الأقل لجهة التمييز بين ما هو دين، وبين ما هو فكر ديني، وإذا كان الفكر الديني هو المعرفة البشرية للدين تحتّم علينا أن نصنِّف الفكر الديني في خانة المعطى الثقافي.. ولكن هذا التصنيف لا يتمُّ إلا بعد التوافق على أن مصطلحَ الثقافة مهما تتباين تحديداته، وتعريفاته فإنها تجمع على النشاط الفكري المعرفي، الذي هو عنصر أساس من عناصر مصطلح الثقافة.. وهكذا تغدو الخبرة الدينية هي أيضاً خبرة ثقافية.. ولعلَّ هذا ما يسوّغ استعمال مصطلح (الثقافة الدينية) إلى جانب مصطلحات ثقافية أخرى كالثقافة العلمية، والثقافة الأدبية، والفنية، والسياسية إلخ...

وإذاً كيف نبحث الخبرة الدينية - وهي خبرة ثقافية - من منظور فلسفي معرفي؛ أي من منظور ثقافي!!؟

ألا يغدو البحث - إذ ذاك - لثقافي الثقافة نفسها من منظور ثقافي بما يعني أن الثقافة تسأل عن ذاتها؟!!

لا شك - إذاً - بأن المعرفة الدينية (ومعها بل ضمنها الخبرة الدينية) وإن تكن مستندة ومستمدَّة - في عناصرها الأساسية من - الوحي، ومن الإيمان بالوحي، إلا أنها ليست الوحي نفسه.. إنها ببساطة: القراءة البشرية للوحي، وبهذا التعريف للمعرفة الدينية، يصبح واضحاً الفرق بين الدين، والثقافة الدينية، وبين الوحي، ومعرفة الوحي.. فإذا كان الدين - الوحي.. مصدره الله سبحانه وتعالى، فإن المعرفة أو الثقافة الدينية مصدرها البشر.. ونحن لا نورد هذا التمييز بين الدين، والثقافة الدينية لننفي صفة التقديس عن الثقافة الدينية، ونثبتها للوحي وحده - فهذا أمر بات مفروغاً منه، ولا يجوز التورط - من جديد - باسباغ المقدس على ما هو بشري.. لأن كل من ما هو بشري فهو نسبي؛ أي ناقص ومتحوّل.. ولكننا نورد هذا التمييز بينهما تمهيداً لبحث العلاقة بين الدين والثقافة.

ما العلاقة بينهما؟!!

يخيل لي أن الدين هو جواب إلهي على سؤال ثقافي بشري.. سؤال لم يكن بوسع المعرفة البشرية الجواب عليه، وما تزال المعرفة البشرية عاجزة، وستبقى كذلك فما هو هذا السؤال؟ ولماذا اسميناه سؤالاً ثقافياً؟ ثم لماذا كان سؤال معجزٌ لا يستطيع الكائن الإنساني أن يقدم الإجابة الحاسمة عليه؟

فما هو السؤال؟ إنه سؤال الوجود.. ما هو هذا الوجود؟ ما مصدره؟ هل لهذا الوجود بداية؟ وهل له نهاية؟ وأين يكمن المعنى الأسمى لهذا الوجود؟ وما هو موقع الكائن الإنساني فيه؟ وما هو مصيره؟

كل الإجابات البشرية عن الطبيعة، والمادة وعن جميع مظاهر الوجود، والتي دخلت في نطاق العلوم الإنسانية والعلوم التطبيقية لم تجب، ولم تقترب من الجواب على سؤال الوجود، وسيبقى هذا السؤال لغزاً بمعزل عن معطيات الدين.

ولكن هذا السؤال يبقى في طبيعته ثقافياً.. بل سؤالاً ثقافياً بامتياز؛ لأنه سؤال الحيرة، والبحث عن المعرفة.. ثم إن الدليل الأسطع على اعتباره سؤالاً ثقافياً بامتياز،

يظهر بوضوح في انهماك الآداب والفنون والفلسفات منذ فجر التاريخ بتحدِّيات هذا السؤال وتداعياته.. حتى يمكن القول: إن ما من إبداع في مستوى الفلسفة والأدب، والفن يمكن اعتباره إبداعاً نوعياً ما لم يتضمن تلك الحيرة التي يتفتَّح عنها سؤال الوجود الخالد.

أما كونه سؤالاً معجزاً لا تقع الاجابة عليه في دائرة الطاقة البشرية.. فذلك لأن كل اجابة للعقل البشري في هذا المضمار تعيد انتاج السؤال من جديد، وتؤكده حتى لتبدو الاجابات البشرية بمثابة غاية جديدة من الأسئلة المتفرِّعة عن سؤال الوجود الأول نفسه..!

الدين - إذاً - بوصفه الإجابة الوحيدة الممكنة على سؤال الوجود، والبداية والمصير لا يمكن أن يكون مصدره بشرياً، بل لا بدَّ من كينونة أعلى من الكائن الإنساني تكون هي المصدر الذي تصدر منه الاجابة وهي الله تعالى. ووفق المؤمنين فإن الإنسان تلقى الإجابة على هذا السؤال عن طريق الوحي من الله تعالى بواسطة الأنبياء.

إن علماء الكلام يرون بأن الكائن الإنساني تعرَّف على وجود الله عن طريق العقل، وأن العقل البشري محكوم بفكرة وجود المبدأ الأول.. وكثير من الفلاسفة يرون ذلك.. ويرون أن العقل يستقل بمعرفة وجود الله بدون أي إضافة معرفية من خارجه (أي من خارج العقل)، وما عدا ذلك من معارف غيبية كالبعث، والثواب والعقاب فإن مصدرها الوحي.

وهكذا بات الوحي مصدراً للمعرفة عند البشر وهي معرفة مختلفة بطبيعتها عن المعارف التي تأتي ثمرة مباشرة لحركة العقل.. والعلاقة بينهما (أي بين معطيات المعارف العقلية، وبين معطيات المعرفة عن طريق الوحي) ليست علاقة تناقض، وتضاد فالعقل البشري - في أي حال من الأحوال - إن لم يستطع أن يثبت معطيات الوحي، فإنه لا يستطيع أن ينفيها.. والعقلانيون - بأقصى درجات تقصّيهم لمعطيات العقل - لا يستطيعون الادعاء بأن الغيب هو ميدان من ميادين عمل العقل البشري.

إن معطيات المعرفة المستمدة من الوحي لا يصح القول فيها إنها ليست نقيضاً لمعطيات المعرفة العقلية فحسب.. بل من الواضح أنها ترتبط بها من وجهين، ولا قيمة لأي معرفة غيبية تنفصل انفصالاً كاملاً عن العقل وقوانينه.

الوجه الأول: ان الأساس الذي يقوم عليه الإيمان بالوحي، وبالتالي التصديق

بمعطيات الوحي الغيبية هو أساس عقلي أو على الأقل - كما بينا قبل قليل - هو أساس لا يتنافى مع معطيات العقل.. والوحي بدوره لا يهدم معطيات المعرفة العقلية، بل يطلب من الإنسان تفعيل هذه المعطيات بما يؤول إلى استخدام العقل بأقصى طاقاته كما يظهر جلياً في المساحة الاستثنائية المخصصة في القرآن الكريم للحثّ على العلم، وتمجيده، وعلى احترام معطيات العقل.

الوجه الثاني: أن الوحي بمجرد صدوره عن الذات الإلهية وصيرورته نصّاً لغوياً يغدو ميداناً من ميادين حركة العقل البشري.. فنحن نتلقى الوحي ونفسّره، ونؤوله بواسطة العقل.. وكذلك فإن عناصر المعرفة - أي الثقافة التي تتوفر عليها تغدو مؤثرة في علاقتنا بالوحي؛ أي في قراءته واستلهامه.. كما أن الوحي نفسه يغدو عنصراً فاعلاً في تكوين الثقافة، وانتاجها في جدل دائم لا نهاية لتداعياته.

فالمعرفة الغيبية مرتبطة بالعقل ابتداء.. أي في اكتشاف ضرورة المبدأ الأول، ومرتبطة به انتهاء؛ أي في صيرورة الوحي مادة لعمل العقل..

ثم إن الدين = الوحي بوصفه جواباً إلهياً على سؤال ثقافي بشري - وفق ما شرحنا، أنفاً - يغدو فصله عن مفهوم الثقافة وقوعاً في مفارقة منطقية.. فما دام الدين وليد سؤال ثقافي، كيف يمكنه أن يعيش ويحيا خارج حاضنة الثقافة؟

فسواء في حالة النظر إلى الدين = الوحي بوصفه منزلاً من الذات الإلهية.. أو في حالة اعتبار الدين ظاهرة تاريخية بشرية املتها حيرة الإنسان أمام الوجود، أو خوفه من المجهول (وفقاً لغير المؤمنين بالرسالات السماوية) فإننا لا نستطيع - في الحالتين - سلب البعد الثقافي عن الخبرة الدينية.

وإذاً فإن حضور البعد الثقافي في الخبرة الدينية هو ظاهرة موضوعية، وليست مفتعلة من أجل أغراض دينية، أو أغراض الحادية. لذلك نرى أن توسيع دائرة التفاعل بينهما (الدين والثقافة) مسألة يمليها هذا الواقع الموضوعي وصولاً إلى التماس الحدود، والأبعاد المشتركة، وكذلك الحدود، والأبعاد التي تخص كل واحد منهما.

إن الحدود التي تحصّن فيها الفكر الديني ضد أسئلة الثقافة، وتحدياتها انتهت إلى عزلة الدين في حقبة من حقب التاريخ؛ أي في القرون الوسطى الأوروبية التي تلتها حقبة عصر النهضة في أوروبا، وسيادة المذهب العلماني.

إن إقامة الجدار العازل من قبل المؤسسة الدينية المسيحية في أوروبا بين الدين،

وبين أسئلة الثقافة وإنجازاتها النوعية في العصر الأوروبي الوسيط لم يكن من املاء الضرورات الدينية على الإطلاق.. ولكنه كان ضرورة من ضرورات السلطة الدينية.

إن إدعاء الكنيسة بامتلاك الحقيقة الكاملة في شأن حركة الكون، والحياة، والمجتمع، والتاريخ، وفي تفسير الظواهر الفلكية والطبيعية لم يكن عدواناً على حق الإنسان في الاكتشاف، والمعرفة فحسب بل كان عدواناً على الدين نفسه بتقويله ما لم يقله، أو هو بالأحرى عدواناً على مقاصد الدين المتجهة أصلاً لأن تكون معرفة الحقائق والأسرار المحيطة بالإنسان من ظواهر كونية وطبيعية - ثمرة من ثمرات سعي الإنسان نفسه نحو الاكتشاف والمعرفة.

وهكذا تغدو كل محاولة لعزل الدين عن تحديات المعرفة، وإشكالياتها (وتوسيع صلاحيات الدين للاجابة الكاملة على أسئلة لا تقع في دائرة صلاحياته هو صورة من صور عزله) تغدو محاولة لتجريد الدين من بعده الثقافي الذي يتصل فيه ابتداء واستمراراً ومصيراً.

ما مصدر الحقيقة هل هو الله، أم العالم؟!

هذا هو السؤال الذي يلخص الصراع الذي قام بين الكنيسة والعلمانية، لم تقل الكنيسة إن الدين هو مصدر مطلق للحقائق الغيبية فحسب، بل جعلت الدين مصدراً لكل تجليات الحقيقة، سواء كانت غيبية أم من عالم الشهود بما يعني تعطيل إرادة الإنسان في اكتشاف الحقائق أو في صنعها.

لقد سقطت الكنيسة (أو بالأحرى لقد سقط مفهوم الكنيسة عن الدين) أمام العلمانية في حدث تاريخي مدوٍّ قامت على أثره حضارة ضخمة (الحضارة الأوروبية)، مؤسسة على نزعة العداء للدين، وعلى الفصل الكامل بين معطيات العلم والمعرفة، (الثقافة) وبين الدين؛ الأمر الذي حرم هذا النموذج الحضاري من بعد روحي كان بأمسّ الحاجة إليه.

نخلص مما تقدم بأنه لا توجد أزمة مفهوم بين الدين والثقافة - كما أن الأزمة التاريخية بين المؤسسة الدينية المسيحية وبين العلمانية لم تكن أزمة تداخل بين مصدر الحقيقة، وتجلياتها في الوعي البشري، بل كانت للفكر الديني أزمته، وللفكر العلماني أزمته.

إنها إذن أزمة تجاه أزمة فكر آخر - أي أزمة الاتجاه الفكري الديني تجاه الفكر العلماني.

ان الفكر الإسلامي الحديث متحللٌ من تراث الأزمات التي ضربت العلاقة بين الفكر الغربي الديني، والفكر الغربي العلماني، وهو قادر - بزعمي - أن يتخطى الواقع في هذه المأساة وأن يقدم نموذجاً باهراً لتفاعل الدين والثقافة.

ان حضور الفكر الديني البشري في الاجتماع التاريخي الإسلامي لا يمكّن أي مؤسسة دينية من احتكار الدين عن حركة الثقافة، والعالم وإلا لحصلت عملية فصل الدين الإسلامي عن المجتمع، وعن الدولة منذ عدّة قرون.

وسر ذلك، في التجربة التاريخية الإسلامية أنها منذ البداية اكتشفت، وتذوقت الثمار الحلوة لهذا التفاعل العميق بين معطيات الدين، ومعطيات الفلسفة، والعلوم فلم يحدث في تاريخ الاجتماع الإسلامي أن اكتشف أحدٌ قانوناً فلكياً مخالفاً للمعارف الشعبية الدينية المكرسة، واستدعى للمحاكمة، أو لتهمة التجديف على الذات الإلهية.

بقي القول: إن الثقافة ذات طبيعة نقدية، ووظيفة تنويرية، وهذا ما يؤهل لأن تغدو مصدر حساسية أمام الفكر الديني.

فهل نغلق الفكر الدين ولا نعرضه لنقد الثقافة واستفزازها، بحجة الحفاظ على قدسية الدين فنعود إلى عصور الانحطاط.. أم نفعل الفكر في دفع الثقافة ومعطياتها إلى أقصى درجات التفاعل مع الفكر الديني، فيكون هذا بداية لإرساء أسس التجدد الحضاري الإسلامي في هذا المفصل التاريخي المخيف من تاريخ أمتنا.

ما أحوج فكرنا الديني إلى قوة الحرية كما تتجلى في الثقافة الحية، وما أحوج ثقافتنا إلى يقين الدين، وشفافيته في الفكر الديني الأصيل والله ولي السداد والتوفيق.

الإسلام آخر الديانات وأولها ميزاته الخاصة والكونية

الملف

تأليف: سيد حسين نصر(*)
ترجمة: محمد إسماعيل

كلّ دينٍ موحى، إما أن يكونَ ديناً عاماً للبشريةِ جمعاء، أو ديناً خاصّاً بقومٍ وزمانٍ محدّدين. ديناً عاماً من حيث احتوائهُ الحقيقة، وقدرتُه على استنباطِها، وديناً خاصاً من حيثُ إنّه يشدّدُ على مظهرٍ محددٍ للحقيقةِ، بشكلٍ يتجانسُ مع الاحتياجاتِ الروحيةِ، والنفسية للشريحةِ الإنسانيةِ، التي يتوجهُ إليها، ويخاطبُها بشكلٍ خاص.

فكلمةُ الدينِ مشتقةٌ من كلمةِ religio التي تعني الارتباطَ (الربط)؛ أي ارتباط الإنسانِ بالحقيقة. من هنا فكلّ دينٍ يمتلكُ بشكلٍ مطلقٍ عنصرين جوهريين، يعتبران أساسَه ومبدأه، هما: تعاليم، وطريقة. التعاليم تميزُ بين المطلقِ والنسبي، بينَ الحقيقةَ المطلقةِ، والحقيقةِ النسبية، بين كلِ ما قيمته مطلقة، وما قيمته جزئية. والطريقة للتوجه الى الحقِ، وللارتباطِ بهذا الكلي، والعيشِ طبقاً لإرادةِ السماءِ، بشكلٍ يتوافقُ مع هدفِ، ومعنى الوجودِ الإنساني. هذان العنصران، التعاليم، والطريقة، يحملان معاني ارتباطِ الفردِ بالحق، والتمييز بين ما هو الحق، وما يبدو أنّه حق، وهما موجودان في كل دين قويم ومتكاملِ. وهما جوهر كل ديانة. ولا يمكنُ لأيّ دينٍ كان، سواء الإسلام أم المسيحية، الهندوسية أم البوذية إلا أن يحتويَ في طياتهِ تعاليمَ لما هو كليٌ وجزئيٌ. لغة التعاليم في التعبير فقط هي التي تختلفُ من معتقدٍ إلى آخر، ولا يمكن لأي دينٍ أن يخلوَ من الطريقةِ التي تركزُ على الحقِ، وتبين كيفية العيشِ طبقاً لهذا الحقِ ولو اختلفت الأساليبُ، فكل دينٍ يعتقدُ بحقيقةٍ متعاليةٍ تترفعُ من عالمِ التبدّلِ، والحدوث؛ لذلك لم يدّعِ أيُّ دينٍ أن العالمَ في مستواه الخاصِّ للوجود هو غير حقيقي بالكلية. حتى نظرية المايا[1] الهندوسية، كما تذكر في المسرحية المقدسة المسماة

(*) أستاذ كرسي في جامعة جورج واشنطن معظم كتاباته تركزت حول الإسلام والفلسفة.
(١) المايا آلهة تمثل الوهم، والباطل، أو الخداع الحسي.